

الفصل الأول

عصر عبدالرحمن الكواكبي *

١ - الحالة السياسية

مرّت بالدولة الإسلامية عواصف كادت تذهب بها منذ نشأتها فقد دبّ فيها الخلاف الداخلي في القرون الإسلامية الأولى ، ثم ولدت فيها دويلات مزقت شملها المجموع ، وانصبّت عليها بعد ذلك ويلات أوربة حين غزتها من الغرب فاحتلت رقاعاً عزيزة منها ، وجاءتها زعازع المغول من الشرق فأحرقت الربوع ودمرت الآثار ، ولكنها وقفت لذلك كله وقفة مذهلة مذهشة حافظت فيها على الدين واللغة والقومية . فلما جاء الحكم العثماني وبسط عليها ظله أطاعت وسكنت في ظاهر الأمر ، حتى إذا تغلغل في كيائها ودخل في صميمها تخدّرت أعضاؤها زمناً غير قصير وأصبحت تعيش في واقعها شرقية مسلمة ولكن نار العروبة كانت تحت الرماد تعيش خلال قرون ، فلما دخلت في طور جديد واستيقظت على أنوار الغرب في الثقافة والحريّة ، ودوّت في أسماعها هزة الثورات وتعاليم المساواة وأصوات الإخاء، راحت تنتشي بعز العرب وكرامة القومية، وتتغنّى بما لأمم أوربة من عيش جديد وحضارة جديدة، وهبّ الكتاب والمفكرون فيها ينقلون إلى أقطار العرب هذه الألوان، ويبعثون فيهم روح اليقظة فتسرى خفية إلى النفوس الكبيرة، وتجاوز الحدود والسدود على رغم العيون والرقباء فتستقر في الصدور الواسعة من أبناء العرب في مختلف عواصمهم، عن سبيل أحرار الأتراك وأحرار القربيين، وساعدها سعى الممثلين السياسيين لأمم الغرب

* هذا العصر رسم خيوطه وخطوطه الكاتب الأدبي الأستاذ عادل النضبان حين ألف في نجيب الحداد ، لسلسلة نوابغ الفكر العربي ، رقم ٣ ، فقد عاش الحداد معاصراً للكواكبي (١٨٦٧ - ١٨٩٩) ، ولم يترك النضبان زيادة لستزيد ، لذلك نحيل إليه فيما أغفلنا من أمور .

كروسيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وإنكلترا ودعايتهم الواسعة وعونهم المادى فراحت تثيرهم وتوقد فيهم نيران الحماسة وتبعث حبّ الحركة والانقلاب .

وازداد اتصال الأحرار العرب بالعرب بالغرب وتوسّعت مؤسساته فى الشرق وكثرت انتقال بعضهم إلى مصر ، وأقبل دعاة الحرية والنهضة من زعماء الفكر فى الشرق وخاصة فى مصر ، يصفون آلام الشعوب العربية تحت وطأة العثمانيين ، ويرسمون الأخطار ويصوِّرون الأمانى والآمال .

وقام بعض أصحاب الصحف يفسحون فى المجال لهذه الصيحات والمقالات فأصبحت الثورة تغلّى فى كثير من النفوس ، واستجاب لها الأحرار فى سورية ولبنان لما كانتا عليه من ظلم الأتراك العثمانيين وجور حكامهم واستخفافهم بالشعوب المحكومة فقد ركب الولاة مراكب الرشوة واللاذنة والمعاصى ، وحكموا بالجووايس والعيون ، وتسلطوا على أموال التجار والفقراء ، وظلموا القانون ، وخرقوا الدستور ، وتجاهلوا قيمة العرب فاخترعوا الألفاظ فى تحقيرهم وتهديدهم ، حتى شاع فى العرب أن الأمر صائر إلى قتل قوميتهم ، ومحو لغتهم ، وتشنيع تاريخهم ، وتلويت نراثهم ، وإفساد أخلاقهم ، والنيل من نبيّهم^(١) . وأسرفوا فى سجنهم وتعذيب أحرارهم وإفقار شعوبهم حتى أُخيّل للعرب أنهم أصبحوا موضع الحماية ومورد الرزق يدرون الأخلاف على الدولة لتنتقل إلى العاصمة العثمانية ومن فيها من حكام وولاة ومنتفذين ، فاستجابت القلوب بسبب هذا كله إلى الناقدين وأصغت للمصلحين ، وراحت ترقب الخلاص وتنتظر الفرج على أيديهم ، وتتلقف آثارهم وتتبع مقالاتهم ، وترى فيهم موضع الأمل ومحط الرجاء ، وتعجب بشجاعتهم وجرائهم وتضحياتهم ، فقد كان منهم فى كل قطر مشعل ينير ، وعلمٌ يحقق ، فى الأفغان ظهر جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧)

(١) فصل الأمر فى ذلك الشيخ كامل النزى فى كتابه «نهر الذهب فى تاريخ حلب» ٣٧٤/٣ وما بعدها . ورسم ما كان من أمر العثمانيين وولاتهم فى حلب الشهباء مدينة الكواكبي ، وكان معاصراً له .

وفي مصر محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) وفي سورية كان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢) أحسوا بالحال التي آلت إليها الخلافة ، والوضع الذي انتهى إليه العالم الإسلامي ، ورأوا أن لا بدّ من رابطة سياسية تمسك بهذه الأمة العربية وتعيد إليها سمعتها في الدنيا ومكانتها بين الأمم ولكنّ كلاً منهم نظر إلى العلاج والطريقة من زاويته الخاصة وثقافته الشخصية وتربيته ونشأته ، فكانت نظريات في الخلافة الإسلامية جديرة بالتحليل والنظر والدرس^(١) ، اشترك فيها الكواكبي بلسانه وبيانه فصاح صيحاته في وجه العثمانيين الأتراك ، ودعا إلى رابطة للشعوب الإسلامية ، وقدر لها دستوراً ونظامها .

٢ - الحالة الاجتماعية

تقلبت الأمة الإسلامية خلال حضارتها الطويلة على نظم الحياة المختلفة ، فأخذت بأساليب الأمم المختلفة في كثير من جوانبها ، وتحلّت بألوان العيش الرافهة على العصور ، ولكنها عاشت فيما يبدو على طبقات اجتماعية متباينة: فيها السلطان والأمراء والوزراء والوجهاء وعمامة الشعب . وظلّت كذلك حتى كان أواخر القرن التاسع عشر ، حين اشتدّ التباين بين الحاكم والمحكوم ، وأصبح الأمر يدعو إلى النظر والتأمل والإصلاح ، وخاصة حين غلت المركزية وقامت الآستانة كمنجزة المسلمين وموضع آمالهم ، وموطن الرئاسة والزعامة والعلم للدنيا الإسلامية ، فانتسب الناس إلى فئات مختلفة متباينة كذلك ، يرجون عندها

(١) عرض الأستاذ أحمد أمين في كتابه « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » إلى هذه النظريات وقلب فيها وجوه النقد والنظر ، بما يحسن الرجوع إليه في دراسة الآراء السياسية لعصر الكواكبي ، وكذلك تجب مطالعة « الخلافة أو الإمامة العظمى » لرشيد رضا ، مصر ١٣٤١ هـ وترجمة المستشرق هانري لاووست وتعليقاته على الكتاب ، دمشق ١٩٣٨ .

الخبر في الحل والعقد ، من ولاية وزعماء ومتنفذين ورجال الدين . وطغت الفئة الأخيرة ومالت إلى استغلال مكائنها ونفوذها فكانت صوفية زائفة حيناً ، وكان أنصاف المتعلمين والمتعممين ، وكانت الزوايا والتكايا أحياناً . وأصبح التدين تجارة وزعامة ووساطة . فولدت البدع والخرافات والخرعبلات ، وضلّ الناس في دروب الجهل والعقيدة لا يجدون السبيل الحقّ والطريق السويّ .

فلما هبّت رياح الغرب وعرف العقلاء حقيقة الأديان ، وعيش الغربيين وواقع الحريات ، مالوا إلى تقليد أوربة تقليداً أعمى ، فترعوا إلى التفرنج والتفنن في اللباس والرياش والمأكل ، وفشا فساد الأخلاق ، وكثر الاختلاط وعمت الرشوة والمحابة ، واستهان الناس بالمبادئ في سبيل الوصول إلى الأهداف الزائلة ، فضجّت الفئات الواعية والعقول السليمة والنفوس المثقفة وهي قليلة ، وهبّت تنادي بتساوي الطبقات ، وفرض العدالة الاجتماعية ، ومحو الفقر والحاجة ، والأخذ بالنفوس إلى أن تتسامى عن الذل والضراعة والرشوة والمحابة والتلق والكذب والرياء ، لعلها تصلح حال الرجل في صناعته وزراعته ، وتبحث في أرضه وملكيته ، معتمدة في ذلك حيناً على نصوص الكتاب والسنة ، وأحياناً على كتب المصلحين من الغربيين ممّا تسرب إلى الشرق من بعض النوافذ . وقد أرادت أن تشرح الإسلام الصحيح وتعالّمه ، وأن تبيّن زيف الطرق والمذاهب المحدثّة ونوع البدع والخرافات ، وأن تتحدث في أمر المرأة وإصلاحها ورفع مستواها ، فالمرأة إنّما هي ابنة ومربية وزوجة ، وشريكة ومشيرة ، وهي نصف الأمة ولا يصلح نصف الأمة الثا إلاّ بها .

ولكن الموضوع الذي كان يثير كبار العقلاء ويحرك الأدمغة الرفيعة هو جور الحكام العثمانيين ، واستنثارهم بالغنم ، ودفعهم الشعب المسكين إلى الغرم ، فهض في الأمة العربية زعماء ينادون بالإصلاح ويطالبون بنزع الاستبداد ومحو الاستعباد والرقّ ، ويطمحون إلى عيش أسمي وحياة أرقّ مما كان يعيش عليها الشعب العربي فطالبوا أن تفتح المدارس للعلم ، إذ كان الشعب على جهل فاضح

لا تكاد كثرته تفهم أو تقرأ أو تكتب وإنما تسير في مسالك الحياة كما تسيرها الأهواء، وألح المصلحون على أن تكثر المستشفيات لتداوى المرضى والزَّمَسَى^(١) والمجهولين، وتوفر لهم العلاج، وأن يقف أديباء الدين عند حدود الدين الصحيح فلا يستغلون العامة ولا يستأثرون بأوقاتهم في سبيل رسوم لا تنفع ووعظ لا يرفع، وكلام لا يقع من الصدق. وطلبوا بعد ذلك كله أن ترقى الصنائع وأن يوفر الكساء والغطاء هؤلاء المساكين الذين كانوا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء، في حين يملك الأغنياء الأرضين الواسعة الشاسعة إرثاً من غير حق، وتملكاً بغير سند، وكان في طليعة هؤلاء الزعماء المصلحين^(٢) عبد الرحمن الكواكبي.

٣ - الحالة الثقافية

كان الشرق العربي في أواخر القرن التاسع عشر على حال لا تحمد من ضعف الثقافة وضآلة عدد المدارس، وضيق وسائل الطباعة والنشر، فقد كانت الأفواه مكبوتة، والصحف قليلة لا تنشر إلا ما يراد منها أن تنشر، ولا يطبع من الكتب إلا ما يخفّ خطره على المستبدّين من الحكام الولاة، فكانت كتب الفقه والأوراد والأدعية تروج وحدها في أنصاف المتعلمين، ويشجعها المتعممون، فلا يلمّ الناس بكتب الرياضيات والطبيعات والفلسفة والحكمة والأخلاق، ولا يقرءون كتب الحقوق والواجبات؛ لأن ذلك يثير المشاكل النائمة ويحرك الأفكار الغائلة، ويخلق المتاعب، وينير العقول.

فلما قامت الإرساليات الأجنبية في هذه الربوع حركت جوانب من البحث

(١) الزمسي: جمع زمين وهو المصاب بالزمانة أي العاهة.

(٢) ظهر في هذا العصر كثير من الزعماء المصلحين تفرقوا في البلاد الإسلامية، فكان مدحت باشا وخير الدين التونسي وعبد الله النديم وأحمد خان والأفغانى ومحمد عبده، ما تراه مفصلاً في كتاب «زعماء الإصلاح» لأحمد أمين، فهو جليل مفيد في هذا الباب.

جديدة، ومسائل من الدرس كانت مجهولة، فلامست عقول المتحررين وأيقظت النفوس الكبيرة، فنشط العقلاء إلى العكوف عليها ومدارسها ونقلها، فنشأت فئة قليلة تقرأ في دقة وتفهم في وعى جديد. وزادها ما نهضت به مصر على يد الأزهر وصحف المصريين في مقالات جريئة وبحوث طريفة وقصائد قومية^(١) تتعلق بالإنسان وكرامته، والمواطن وحقوقه، والعربي وحرريته، وتسربت هذه الصفحات سرّاً وخفية إلى الأيدي المرتعشة والقلوب الخائفة لأن السجن كان أقل عقاب لقراءة الآثار الخطيرة، والنفي كان أقل جزاء لتملك هذه القنابل المحرقة. وقسوى ذلك ما كان من صلة الغرب بالشرق وطواف بعض العرب بعواصم الغرب، وما كان ينشره ويحمله إلى العرب قناصل أوربة سعياً في الإثارة وتأجيجاً لنار الثورة - كما قلنا - .

ونشأت في سورية واهنان صحف تكتب في موضوعات جديدة فكانت تعمّر قليلاً ثم تنطفيء، وكانت تنقل إلى العرب كتب الغربيين ومسرحياتهم ورواياتهم وأدبهم وأخلاقهم، ثم صاحبها انتشار المدارس وتقدمها، فدعت إلى الإصلاح والحرية. وكان أن صدرت في حلب جريدة «الشهباء» حرّرها مبخائيل الصقال^(٢) والكواكبي ثم عطّلت. وصدرت فيها كذلك جريدة «الاعتدال» بالتركية والعربية ولكن سراجها أطفئ كذلك في مطلع حياتها، فقد كانت كأختها حرّة الضمير تكتب في حبّ الوطن وتنبيه على مواضع الخلل، وكان يحورها

(١) ألف الأستاذ أنيس الخوري المقدسي مجتهداً نفيّة في تصوير نزعات هذا العصر وانعكاسها في الأدب وجمعها في كتابه «الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث» وقد طبع في جزين بيروت ١٩٥٢، يحسن الرجوع إليهما في تفصيل الأمر والتوسع في دراسة العصر.

(٢) أديب شاعر حلي ابن العالم الشاعر أنطون الصقال ولد في مالطة يوم كان أبوه نازلاً فيها. اشتغل في أول عهده بقرن الحماة ثم عاد إلى الاشتغال بالأدب فنزل مصر سنة ١٨٩٧ ونشر فيها مجلة «الأجيال» المصورة وكانت أول مجلة مصورة ظهرت في العربية ثم رجع إلى حلب وعكف على التأليف، ثم عاد إلى مصر وقفل بعد ذلك عائداً إلى وطنه. له ديوان شعر وكتب في الأدب والتاريخ، وقد توفي منذ سنوات عن شيخوخة صالحة (انظر ترجمته المفصلة في كتاب «أدباء حلب ذور الأثر في القرن التاسع عشر» بقلم قطاكي الحمصي).

الكواكبي كذلك ويسعى فيها إلى جامعة إسلامية عربية قريبة مما سعى إليه المصلحون في عصره .

وكان المحروم مصطفى كامل في مصر يعمل للوطن والحرية كذلك فيدوى صوته في مسرح زيزينا بالإسكندرية ، كما كان يدوى صوت النائب الفرنسي فرانسو دلونكل والكاتبة الفرنسية ، مدام جوليات آدم ، إلى مقالات أحمد رضا بك صاحب مجلة «شوراي ملّت»^(١) التي كانت تصدر في القاهرة مطالبة بالدستور والحرية ، وكتابات أحرار السوريين واللبنانيين في مصر والبلاد الأمريكية ينفخون كذلك في بوق الحرية والدستور نفخات امتلأت بها أجواء الشرق وآفاقه^(٢) كالذكور فارس نمر في المقطم وسليم سر كيمس صاحب المشير^(٣) والشيخ عبيد الله مبعوث آيدين وصاحب جريدة «العرب» التي كانت تصدر في الآستانة ويحمر فيها معروف الرصافي .

وكانت هذه الأصوات تبلغ آذان المتحررين والمخلصين العاملين في بعض الأقطار العربية فتثير في النفوس الأمل وتبعث في القلوب ربح الحرية والقومية ، ولكنها كانت قوية عظيمة في القاهرة وخاصة بعد أن تحررت مصر من ظل العثمانيين ، فهض إليها الأحرار من العرب ، ونزعوا في اللجوء إلى حماها ، وكان منهم السيد عبد الرحمن الكواكبي الذي أصدر فيها مقالاته وبحوثه مدوية ، ثم ظهرت في كتابه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» .

(١) إبراهيم سليم النجار، مجلة «الحديث» ١٩٤٠ ، ٤/١٤ .

(٢) إبراهيم سليم النجار، مجلة «الحديث» ١٩٥١ ، ١١٨/٢٥ .

(٣) يقول إبراهيم سليم النجار في المصدر نفسه : غير أن الصحافة العربية الإسلامية

كانت بعيدة عن مثل هذه النزعات ، فلا «المؤيد» ولا «اللواء» ولا «الأخبار» لصاحبها أمين الرافعي كانت تتعرض لمثل هذه المواضيع والأبحاث النارية . ولكننا سنرى أن «المؤيد» تصبح بعد قليل مسرحاً لقم الكواكبي وموضوعاته الجريئة في محاربة الاستبداد والامتداد .